

بقلم: شكري حبيبي

مع مضي عام وبداية عام جديد، لابد أن تكون لدى كل واحد منا مطامح ورغبات يريد تحقيقها. وهنا أود أن أطرح السؤال التالي: هل ترغب أن تملك الكثير من المال يا صديقي في هذا العام الجديد؟ إذا طرحنا هذا السؤال على الكثيرين من الناس اليوم، لأجاب معظمهم بالتأكيد نعم. فهذه هي رغبة الكثيرين أن يصبحوا أغنياء، فيرتاحون من مشقة الحياة ومتاعبها. وهذا صحيح بشكل عام، فوفرة المال تضمن للإنسان العيش المرفه، والحصول على مقتنيات عديدة، وتحقيق الكثير من طموحاته وآماله. وتساعده في نفس الوقت في زمن الضيق، وعندما يتعرض للمحن والآلام. ولهذا نحن ننظر إلى الأغنياء عادة، على أنهم أناس سعداء لا ينقصهم شيء، فنتمنى أن نصبح مثلهم، لا بل قد نحسدهم على ما هم عليه. فهل حقا أن الأغنياء هم أسعد الناس كما يظن الكثيرون؟

لو سألنا الأغنياء هل أموالهم تجعلهم سعداء؟ لأجاب معظمهم بدون تردد كلا. لا بل أن بعضهم يجيب أن غناهم هو مصدر تعاستهم. فهل هذا ممكن ومعقول؟ حقا إن الحياة مليئة بالمتناقضات، ولعل هذا من سخریات القدر. إن الغني ليس هو كما يبدو من الخارج الإنسان السعيد، الذي ليس بحاجة إلى شيء. إنما هو إنسان كباقي البشر يُصاب بالكآبة والحزن، ويتعرض للأمراض الخطيرة، ولن تستطيع أمواله إنقاذه من كل ذلك. فلا نظن أن الغني هو إنسان يختلف عنا، وكما يقال فإن لكل إنسان مشاكله وهمومه، إذ لا يخلو امرؤ منها. فإذا كانت مشكلة الفقير مثلا قلة المال، فإن الغني قد يواجه مشاكل أخرى لا تقل أهمية. وعلى العكس من ذلك، فإننا نجد في أحيان كثيرة بعض الفقراء سعداء أكثر من الأغنياء، لأنهم عرفوا مصدر السعادة الحقة، واستطاعوا أن يدرّبوا أنفسهم على الاكتفاء بحاجاتهم.

خسارة النفس

لكن ماذا تقول لنا كلمة الله المقدسة في هذا المجال؟ إسمع صديقي ماذا قال الرب يسوع المسيح مرة قال: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه." (الإنجيل بحسب بشارة متى ١٦: ٢٦) لقد كشف لنا المسيح في هذه الآية المقدسة بعدا هاما جديدا في موضوع الغنى والربح، ألا وهو بعد النفس الخالدة. فما النفع إذا استطاع الإنسان حقا أن يربح العالم كله ويصبح غنيا، لكنه في المقابل يخسر نفسه. وهل تستطيع كل أموال العالم التي يملكها أن تنقذه أو تنجيه من الهلاك

الأبدي المحتوم؟ وما نفع أمواله الكثيرة في هذه الحالة؟ وما هي أهمية الغنى لعدة سنوات هنا على الأرض مقابل خسارة الأبدية التي لا نهاية لها؟

إن حقيقة كون نفس الإنسان خالدة، هي حقيقة أكدتها كلمة الله المقدسة، ولا يستطيع أي منا تجاهلها أو إنكارها. وعلينا أن نأخذ هذه الحقيقة بالاعتبار قبل أي شيء آخر، ونعمل على أساسها. إن قيمة النفس لا تُتَمَنَّى، ولهذا علينا أن نسعى أولاً لربح نفوسنا وتأمين سعادتها ومستقبلها الأبدي، قبل أي شيء آخر. فكما قال المخلص المسيح ماذا ننتفع إذا ربحتنا العالم كله وخسرنا نفوسنا. ألا نكون في هذه الحالة، كذلك الشخص الذي أبقى إلا أن يحمل معه من السفينة التي كانت تغرق، كيس الذهب الثقيل، فأدّى ذلك إلى غرقه في البحر وانتهاء حياته. فماذا كان أفضل بالنسبة له عندئذ: الحياة أم الذهب؟ وهكذا نحن في مسيرتنا علينا أن نعرف ما هي الأولويات في حياتنا. هل هو المال الوفير والحصول على مشتريات قلوبنا الخادعة؟ أم هو تأمين مستقبل نفوسنا الأبدي؟

ولهذا نجد أن المخلص المسيح يتابع كلامه قائلاً:

"فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله." (إنجيل متى ١٦: ٢٧) إن ابن الإنسان أي الرب يسوع المسيح سوف يأتي في مجيئه الثاني الباهر العظيم، لكي يدين البشر جميعاً. أي إن الدينونة أمر محتم وأكيد. فهل ترانا نحسب حسابها في تخطيطاتنا؟ أم نسلك وكأننا سنعيش إلى الأبد؟

الحياة والمال

أتى مرة شخص إلى المخلص المسيح وقال له: يا معلم قل لأخي أن يقاسمني الميراث. فأجابه المسيح: يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً أو مقسماً. ثم التفت المسيح إلى تلاميذه وقال لهم: "أنظروا وتحفظوا من الطمع. فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله." (الإنجيل بحسب بشارة لوقا ١٢: ١٥) لقد حذرنا المسيح هنا من الطمع والرغبة في أن نصبح أغنياء. والسبب لأن حياتنا غير متعلقة بما نملكه من أموال.

ثم ضرب المسيح مثلاً لكي يوضح ما أراد قوله فقال: "إنسان غني أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلاً ماذا أعمل لأن ليس لي موضع أجمع فيه أثماري. وقال أعمل هذا. أهدم مخازني وابني أعظم وأجمع هناك جميع غلاتي وخيراتي. وأقول لنفسي يا نفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريح واكل واشربي وافرحي. فقال له الله يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التي أعدتها لمن تكون." ثم علق المسيح قائلاً: "هكذا الذي يكثر لنفسه وليس هو غنياً لله." (إنجيل لوقا ١٢: ١٦-٢١)

إن هذا الغني الذي وصفه الله بالغني لم يفكر إلا في

مشاريعه الأرضية، ومستقبله هنا على الأرض، وكأنه سيعيش إلى الأبد، فظنّ أنه آمنّ مستقبلاً. لكنه لم يفكر أو يعر اهتماماً لمستقبله الأبدي. لهذا قال له الله يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك، فلمن ستترك هذه الأشياء التي ظننت أنك بنيت مستقبلك على أساسها؟ لقد أتت ساعة الحقيقة، ساعة الموت فماذا أعددت أيها الغني لمستقبلك الأبدي؟

ولنلاحظ تعليق المخلص المسيح على هذا المثل الذي ضربه إذ قال: أنه هكذا يحصل للذي يكتنز لنفسه وليس لله. أي هكذا يحصل للذي يهتم بمشاريعه الأرضية، دون أن يؤمنّ مستقبله الأبدي بعد الموت.

لهذا لم يكن غريباً أن ينصح الرب يسوع المسيح تلاميذه وكل البشر في مناسبة أخرى قائلاً: " لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون." (متى ٦: ١٩ و ٢٠) إن الغنى هنا على الأرض، هو أيضاً غنى غير مضمون، فكم من غني خسر ثروته فجأة، أو سرق ثروته الآخرون. بينما الذي يكتنز في السماء أي عند الله، لن يؤمنّ مستقبله الأبدي فحسب، بل يتأكد أن كثره هناك لن يتعرض للسرقة أو للتلف والضياع. فالكنز السماوي مضمون مئة بالمئة. فلماذا يترامض الناس يا ترى ويتعبون لجمع المال وكأن حياتهم متعلقة به؟ أو ليس من الأفضل أن نسعى أولاً للحصول على الكنز السماوي الذي يضمن لنا مصيرنا الأبدي ويستمر معنا إلى الأبد؟

الكنز السماوي

لعل السؤال الآن ما هو هذا الكنز السماوي؟ وكيف نحصل عليه؟ إن هذا الكنز السماوي هو رسالة الخلاص التي أعلنها لنا الله، من خلال المخلص المسيح وعمله الكفاري على الصليب، وقيامته الظاهرة من بين الأموات. وبإمكاننا الحصول على هذا الكنز كنز الخلاص، عن طريق التوبة الحقة والإيمان القلبي الصادق بالمخلص المسيح. لهذا قال الرسول بولس لسجان فيليبي: آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك.

أجل هذا هو الكنز الحقيقي الذي يجب أن نسعى أولاً للحصول عليه. وهو كنز ثمين جداً، وأعظم من كل كنوز العالم، لأنه يضمن لنا مستقبلنا الأبدي، ويعطينا سعادة القلب من الداخل هنا على الأرض. فهل تود صديقي الحصول على هذا الكنز العظيم والثمين؟